



أصوات
أدبية

حارس الغيوم

اللوحة للفنان الشهير مصطفى عبد المعطي

سمير عبد الفتاح





حارس الغيوم

قصص

سمير عبد الفتاح

265
أصوات أدبية

أصوات أدبية

سلسلة نصف شهرية

تعنى بنشر الإبداعات المصرية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

- حارس الفيوم 265 - قصص - سمير عبد الفتاح
- الطبعة الأولى - منتصف يوليو 1999

المراسلات

باسم مدير التحرير على العنوان التالى :
١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين



البعد السابع

لم تكن صرخة

تلك التى أطلقها وحيدى..

وهو نائم فى حضنى!

نعم، لم تكن صرخة، بالمعنى الذى نعرفه عن الصراخ

فنحن نصرخ خوفا أو هلعا

غضبا.. أو دلعا.

ونصرخ لننادى، أو نتنادى!

نتعارك أو نستغيث.

نتحاور أو نتشاور!

لكن هذه التى أصدرها وحيدى لم تكن صرخة بأى حال.

اللغة ضيقة!

متصامتة!

تصف ولا تحدد، تقرب، ولا تعين،

تتجاهل المضمر، الكامن،

البعد الثالث للسطح..

الرابع للبصر..

السابع للبصيرة!..

لتشير إلى ذلك الواضح اللافت.. الراهن المتواتر المتقاطر.

نعم، لم تكن صرخة ألم، أو استغاثة ندم، ولم تكن شكوى من شئ يمكن تحديده، أو شخص يمكن تعيينه، أو رغبة فى كسب الوقت،

أو صرف الجهد..

لم تكن صرخة يأسٍ، ولم تكن صرخة قبول.

اعتقاد أو جزم،

نفى أو إثبات.. «نعم» أو «لا» :

ولم تكن صرخة إرادية يمكن منعها، أو تهذيبها، أو تأجيلها، أو كبحها، أو حتى فهمها فلم تكن من ذلك النوع الذى يبتذله الناس فى عيشهم اليومى أو تبادلهم المادى

أو المعنوى! ولم تكن فى اتجاه حاجة مادية قريبة الأمد، أو حتى معنوية بعيدة الآماد.

ربما كانت كل هذا وذاك،

وربما كانت غير هذا و ذاك!

فلم تكن لها علاقة بمطامع الإنسان أو مطامحه..

بمصالحه أو مصالحاته،

بحاجته إلى الأمن، أو حاجته لهتكه،

تلك الصورة المخاتلة.. المراوغة.. التى لا تشف ولا تستشف،

تلك التى تقف على تخوم البداية والنهاية،بين البسمة والعبرة، الحلم والكابوس،

صرخة لم يذكر فيها اسمى، ولا اسم أمه، ولم يطلب مساعدة منى أو منها.

لم يقل «بابا» أو «ماما»، ولم يستخدم أى حرف من حروفهم، أو كناية من كناياتها الكثار.

ربما كانت أقرب - واللغة خائنة - لتلك الصرخة المكظومة، الوجلة. البائسة. الغامضة. المندغمة، التى

يصدرها شخص وحيد. فُوجئ - فى وحدته - برصاصة فى قلبه..

أو قطار يسحقه، أو سيارة نقل تدهمه..

فلا يملك - فى ذلك الجزء الطويل/ القصير من الثانية - أن يلجأ إلى اللغة، أو إلى أبيه.. أو عشيرته..

أو حتى إلى عقله!!

صرخة ليس لها نحو أو صرف..

قواميس أو معاجم..

، ولا يهمها أن تعجبك.. أو تعجبنى.. قط!!

ربما كانت رغبة أخيرة.. طاقة كامنة.. قوة مضادة..

قصور ذاتى.

وربما كانت لغة الهية خاصة.. شديدة الاختزال والغموض..

لغة لا يوجد لها ند فى اللغات التى نعرفها. أو يمكن أن نسأل عنها

لغة مختزلة.. وجيزة، يسكت فيها المؤمن عما يجب السكوت عنه أو عليه، فهو لا يخاطب شخصا زائلا

مغلولا.. مجيلا يمكن أن يراوغ فى لغته واشاراته، ويتوجب عليه. من ثم ـ أن يبص قبل أن ينص.

لغة لا يمكن تأويلها أو الاشتقاق منها، أو حتى السؤال عن أصلها وفصلها.

صرخة كليمة.. مستوحشة.. مستوجبة.. أخيرة، لإنسان اكتشف ـ قبل غمضة عين ـ أنه وحيد، مفرد فى عالم جليدى لا يوجد فيه غيره!

عالم خال، بارد، بلا ضغط أو جاذبية. ولا يوجد فيه من يخدمه أو ينقذه، أو يدله، أو يدفعه!! وإن وجد : فهو مشغول بذاته.. بملذاته.. بالدفاع عن جسده العارى، ومجاله الجوى!

نعم، ، صرخة أخيرة لإنسان وحيد، لم يعد ـ الآن ـ فى حاجة إلى أبويه، أو تراثه، أو أصابعه، أو حتى لقاتله : فكل هذه أمور «بعدية» يأتيهاالإنسان بعد أن يتمدد على سريره، أو يشرب قهوته المفضلة، أو يغفو على مقعد بحر!!

فهناك.. يمكن أن يتدبر، ويقارن، ويصيغ..

قبل أن يتقنع بعشرات الأقنعة التى تعينه على دفع ضرر.. أو قنص فريسة!

نعم، لم يقل «بابا» ولم يستنجد حتى بنفسه!

فهى أصلا لم تكن آهة كما نعرف الآهة ونألفها، ونبتذلها فى أغلب الأحوال، ولم تكن شهقة يمكن فهم علتها، أو تحديد مصدرها.

ربما كانت شكوى إلى ملك الكون نفسه، وربما برقية إلى ملك الحياة.. من يدرى؟ من يعلم؟ من يقطع؟ من يطمئن؟

ربما كانت أمنية أخيرة لأيهما أن يسامحه هذه المرة. أن يخطئه، يتجاوزه، «يطنشه» «يغطرشه»!

«يحل عن سماه»!!

ولكن هل كانت هذه بداية البداية، أم نهاية النهاية؟

من يدرى؟!

ربما كانت احتقارا للحياة، والوجود أو رغبة ـ كامنة ـ فى الموت والغناء، فى العودة إلى الدفء والقرار، وربما كانت حالة غامضة، تتجاوز قدرة العقل البشرى المخاتل..

المسقوف.. المأطور.. المحدود المخادع المخدوع!

وهى حالة لا تملك معها إلا أن تهب من نومك قاعداً مفطور القلب، وتمعن النظر فيما يمكن أن تأتى به الأيام، وتلفظه الليالى.. ثم تصيخ السمع لأصوات لم تكن تسمعها من قبل - على الأقل بنفس الوضوح - أو تكن تعيرها انتباها واجبا..

أصوات تصهر خلاياك، وتنظمها فى هول كونى عظيم.. لا تبدو له نهاية.

ما فعلته اليمامة حين تعلمت الهديل

بوسعى الآن تذكر كل شئ....

بعد أن نُزع النصل من القلب، وانقشعت بواكير الأمانى!

بوسعى تذكر لون القطار، ورائحة الضباب والمطر

بوسعى تذكر عدد النوافذ والفلنكات، وكيف لوَّح بيديه من نافذة ظلت تصغر وتبتعد، وكيف انسل من حضنى كما ينسل الوريد.

فهل ترك يدى ليمسك بندقية؟!

هل شببت على اطراف اصابعى، أم جريت هائمة خلف القطار اللعين؟

من خدرنى وربط لسانى؟... من خطّل عينًى وملأ السماء بالرماد والقذى؟ من ألقى بروحى فى برزخ.. وأفسد قلبى بالنشيج؟

«أيها الثور الواقف ما بين شعلتين..

ماذا يضيرك لو غفوت على صدرى؟»

ما فعلته اليمامة حين تذكرت وليفها

وفيه : لم يكن الدخان طفيفا، حين رأيت مقلتيه تبتعدان وتختفيان عن ناظرى، لكنى سمعت صرخة مكلومة تتردد فى ظلام كبدى. ربما كانت لقطةٍ تموء، أو لنمرٍ يحتضر :

- أحمـ...ا...ا.د.ماد...ماد...ماد!

صوت يداخله العويل، فيه ابتئاس، واكتراث، واحتراس وفيه منى!

بمقدورى الآن استعادة كل التفاصيل، وكأننى تحولت إلى شريط فيديو، فأراه : يلوح مودعا ومشجعا، وأرى عقارب ساعته، وعدد شعيرات كفه. أثبت الصورة : فاشعر بدفء يديه المحيطتين، وقلبه الواجف. أقربها : فأرى حدقتيه، وأقرأ أفكاره ومفازات عقله. وكلما غابت ملامحه، وضح حضوره، وتجلت سجاياه!

ما فعلته اليمامة حين شعرت بقلبها

وفيه : لم يكن عصير البرتقال بارداً، حين عانق أحمد أصابعي، وخطل عيني بنظراته الحانية، حين أشار إلى المراكب التي تتألق بالعاشقين على زبد النيل، وصوت فيروز يطهر الدنيا ويداعب الأسماك في خلجانها، حين لثم ابهامي، فتماوجت كأس البرتقال هنيهة، وتزوبعت في فنجانه مويجات القهوة.

وحين رفع القرنفلة الحمراء إلى وجهي، امتلأ العالم بالياسمين، وتعابثت في روحي ملايين النوارس. فهل كان البرتقال بارداً؟!

هاأنذا أشعل بعض شموع الذاكرة، فأرى لون المناضد زاهيا تحت شمس المغيب، وأرى السيارات تمرق على الجسر القريب وأرى العصافير تتزاحم على أعشاشها فأتذكر عشي :

«أتمنى لو يحملنى براق اليك... لو أتشرنق فى قلبك... لو يتحد كيانى بكيانك، لو أناديك فأقول : «يا أنا».

ها أنت ترمى شباك عينيك فتصطاد قلبى، تلمس كفى فتشتعلان ناراً باردة، أمدها إلى قلبك فلا أصيد سوى شعرتين، اضعهما فى حافظتى فيرشقنى الجرسون بنظرة عابثة أركله بأنفى وأصيح بمنطق النمرة : ابعد عينيك القذرتين عنى فلست خالقى!

بينما المطر يغسل الطريق والفؤاد، ويضبب الزجاج الفاصل بين الثلج والنار.

* سأكتب لك كل يوم... لا تقلقى!!.

* هل ستكتب لى كل يوم؟

* كل يوم.

ومد يده بزجاجة صغيرة : خذى.

* ما هذا؟

* دم

* دم؟!

فتحتها واجفة راجفة «زجاجة ممتلئة بلون أحمر قان».

* ردى به على خطاباتى!

* خطاباتك ؟

* خطاباتى.

كشفت عن ساعدى ورجوته أن يأخذ ما يريد، فرمى قبلة وقال :

* أنت... أنا

وفى الطريق تماست ذراعانا العاريتان فشعرت بالعسل يندى وديان صدرى، فيما يشير تمثال الجد زغلول اشارة غامضة لشئ ما... يراه قادماً.

ما فعلته اليمامة حين فكت طوقها

وفيه : لم تكن الحقيقة قد وضحت بعد «مجرد متاعب شهرية تزور كل البنات» آلام أسفل البطن والثديين، تسمع فى الساقين والكتفين، صداع وسخونة ورغبة فى التقيؤ.

لكن الأمر تغير حين تغيرت الأعراض، واختلفت التضاريس.

أكذب لو نفيت سعادتى، وأكذب لو أثبتها، كل الأمور توحدت، وتقاربت كل الأمانى!

«كان طيبا أن تمسك يدى، فتتلامس دبلتانا، وكان جيدا أن تخاصم ظلك فتهون الأمور وتطمئننى : «ربما كنت تحلمين... تأملين كل البنات يحلمن بالزواج والأمومة... والدفء والأمان».

لم يكن حلما... لكن وجودك إلى جانبى كان يعزينى...

فهل كان ضروريا أن أرافقك إلى شقتك/شقتى/شقتنا؟

هل كـان ضـروريا أن أنتظر حـتى تتـألق كل النجـوم،
وتتواثب كل الفراشات الملونة؟

* اختارى خاتما.
* يكفينى إصبعك.
* اختارى ساعة.
* يكفينى معصمك.
* اختارى نظارة.
* يكفينى عينيك.

ما فعلته اليمامة حين واتتها الغمامة

وفيه : فى البيت رأيت أمى تنظم أشياء ربما كانت تخصنى - أدوات مطبخ أو فساتين فرح - لكم بدت الأشياء باهتة وقديمة كما بدت أشجار البانسيانا ذابلة على النيل ومنكسرة، وفى الصالون : فقدت صورتنا على البحر ألوانها الفارقة، فبدت جريدة أبى رمادية، وأمى تمد أصابع قدميها لموجة باهتة فيغطى أصابعها رمل ناعم نزق لا لون له، ما يلبث أن ينسحب مع أول موجه - مثلما تنسحب الحياة - فيما أظاهر البحر مولية وجهى شطر أمى، معتصمه بطوق بلاستيكى فقد تألقه انتظر كل موجة لأغمض عينىّ، واتشبت بالأرض الخائنة التى ما إن تسحبنى حتى «أعافر» وأغرس اظافرى الصغيرة، فيعود البحر خاسئا، لكنه يكور حماله صدرى بالرمال الباردة

فتضحك أمى، وتطلب أن أخلعه حتى لا يطمع من فى قلبه مرض، ثم تعترض قليلا حين أخلعه وأرميه ـ فجأة ـ تحت قدميها... تقول انه لا يخفى سوى ترمستين.... لكنه على أية حال ـ يميزك عن الأولاد!!

ما فعلته اليمامة حين شعرت بنفسها

وفيه : لقد عقد قرانه، حين عقد ذراعيه حول خصرى... وضمنى اليه فانعقد لسانى وحينذاك شعرت بعقدى ينفرط عنبا بارداً تحت حفاء قدمى... ورأيتك تربت على ظهرى وتطمئننى :

- لا تخافى... أنا امتدادك.. أنا أنت!

ولما تبين الخيط من الطوق، حلمت بخيول سوداء تصهل وتطاردنى، ورأيتنى أهيم - عارية - فى صحراوات ملؤها الشوك والصبار، وحين أسقط على وجهى دامية أشم رائحة التراب، وأسمع آلاف الحوافر تمرق بجوار أنفي، وتنثر الرمال على شعرى، وأطراف أظافرى وحين أرفع رأسى، أرى عشرات الشمطاوات المتشحات بالسواد - والبرص - يدرن حولى بخيول عجفاء صاخبة تنفث نارا من أنوفها، ويتمنطقن بأحزمة تتدلى منها كلاب صغيرة

مـربوطة من ذيولهـا ، تتـعـجل لحظة الخـلاص، كى تـأكل الأرض ومن عليها ، فأحاول الفرار بوليدى الجميل قبل أن تخطفه الشمطاوات بمناجل فى ايديهن، ويتقاسمن جسده فيما بينهن ضاحكات، فيما تتعارك الخيول حول حبله السرى وتتكالب الضبـا ع والثعالب، أصيح فلا يخرج صوتى، أجرى فتكلبنى مواجعى أنوء فتخنقنى الأمانى... أمد الكف فتعود مسلوخة دامية. أصرخ واهب قاعدة، معروفة، وقد انفطرت روحى وتقطعت انفاسى أتحسس بطنى وشعرى، تأتى امى جزعة متسائلة، وحين تعرف الحقيقة تهون الأمور، وتنصحنى بحل مشاكلى قبل أن أنام وقبل أن تغلق الباب تسألنى - بحسرة - عن خطيبى الغائب... وعما سأفعله بعد أن تأكد فقده فى الحرب الأخيرة؟

ما فعلته اليمامة حين داهمتها المنايا

وفيه : أغلق أبى باب غرفتى، ولطمنى - لأول مرة - على وجهى! قال انه عرف كل شئ، وانه نادم على تدليلى - وما صرفه على تعليمى، ثم قال انه لا يوجد سوى حل واحد : ان ينزل الجنين فوراً... أو تهربى بعارك!

* بعارى؟!

حاولت أن أقول بأنى لم التقطه من شارع، لكنى قبلته ممن أحببت، وعقدت، والزواج رضا وقبول.

* واشهار يا مثقفة... وأنا كأب لا يهمنى سوى الاشهار غيرى ملابسك... واتبعينى!

لم تكن فى حياتى خيارات أخرى، ففضلت بقاءه على حياتى...

* هل جننت؟

فلئن كنت فرطت فيك، فيستحيل أن أفرط فيمن بقى لى منك.

* هل جننت؟

بيد أن ما أخذك منى، أخذه أيضا، حين داهمنى النزيف والمغص، وهدنى الألم والمخاض، ولم ينقذنى من الموت سوى سقوط قطعة لحم في حجم الكف، لم أسمع لها صراخا، ولم أر لها أى ملامح، فأخذتها أمى إلى المقابر، وحين عادت أخذتنى إلى حضنها ورجتنى ان انسى ما مضى، فالحب تجربة مثلها مثل غيرها، وعلى العاقل ان يعرف يبدأ ومتى ينتهى.

* ما رأيك فى ابن عمك؟... مهندس ولديه عمارتان، وسيارة، ومصنع طوب و... و...و....

ما فعلته اليمامة حين شعرت بطوقها

وفيه : وبعد ان انقضى العمر ورحل الأبوان لم يبق لى سوى ذكراك ايها الجودو الجميل، الوكها حين أرتدى ثيابى القديمة، وأرى السنين تزحف على ملامحى وتفقدنى شعرى واسنانى، لكنى مازلت أجلس فى نفس المكان واطلب نفس العصير من نفس الجرسون.

هاهو قد شاخ وضعف بصره، لكنه مازال يعرف طلبى ويقدمه قبل أن أشير إليه.. وحين أحاسبه يشكرنى بانكسار ألى عجوز،، ثم يضع النقود فى جيبه دون أن يراها وكأن رؤيتها لن تقدم ولن تؤخر!

وحين أمعن النظر فيما حولى يفجعنى ان كل شئ قد شاخ وتغير، فمازال شجر البانسيانا فى مكانه على النيل، لكنه فقد خضرته وتألقه، كما بهتت مقاعد الكازينو، وتفرز القطن من مساندها، وتغبر الزجاج بفعل الاهمال

والتلوث، فلم يعد يكشف الا عن مراكب حديدية تمرق كالشهب، ولا تخلف سوى الضجيج والدخان. وحين أرنو اليك واخاطب روحك يتعجب الناس ويتغامزون، فأغادر المكان غاضبة، قبل أن نتراشف العصير أو نسمع صوت فيروز. وعلى الرصيف أرء الجد زغلول قد أرخى ذراعه الآمرة حين تناوم الشحاذون والمتنطعون حول قاعدته، وفقد الناس كل احساس بالحرب والمقاومة، وتشاغلوا باجسادهم، وما يقع تحت انوفهم ونطاق ايديهم، وافرخوا جيلا رخوا هجاما شتاما يتسلح بالمدى ويحلق الكابوريا دون ان يملك مكالبها، ويبيع الوطن بسيجارة فهل فقدت حياتك من أجل هؤلاء؟

راهنت بعمرك لكى تعمل مفارخهم؟ قايضت حبى وصبرى باستمرارهم؟!

ما فعلته اليمامة حين خدعتها السنون

وبناء عليه : أوقفوا هذه المرأة المجنونة... اطلبوا البوليس!! هكذا صاح مدير الكازينو الجديد فى موظفيه، حين رآنى أحطم كل ما حولى بعصا كانت فى الأصل - صارية لعلم، فهل كنت أرفض الجديد، أم أدافع عما بقى منك؟. لقد غيروا كل شئ - فجأة - وحولوا جنتنا المشتركة إلى صالة رقص للغلمان والخصيان، وحين منعونى من الدخول، لم أشعر بنفسى، ورأيتنى أحطم الأنوار الوامضة وموسيقا الديسكو الصاخبة، وأرى الشبان والغلمان يفرون من غضبى، وصاحب الكازينو يجرى الى التليفون، ويحتمى بكتلة من لحم البيتزا والشاورما وعندها شعرت بقلبى يكاد ينفجر تحت نهدى، ودمى ينزلق - لزجا دافئا - بين اصابعى، فيما أقترب الجرسون - ذلك الذى كان يسرقنا بنظراته - بعد أن أحالوه للتقاعد، ووضح عليه

الشيب والأفول، فمد يده الهرمة المقوسة بعزيمة فاترة ونظرة يائسة، تساوت لديها كل المشاعر والأماني فسلمته العصا مأخوذة وكأنني اسلمه شعلة منطفئة!

ولابد انني بلغت الغيبوبة، لأنني أفقت في مستشفى وسمعت من يسألني عما فعلت، ورأيت شبحا يلبس كابا يكتب أقوالي، ثم بديناً تمتلئ أصابعه بالخواتم الملوة ورسغاه بالسلاسل والانسيالات، يتوعدني، ويطالبني بالتعويض عما أتلفت. فلم أرد، لكني سحبت كتلة من النقود ورميتها تحت أقدامهم، فتهلفتوا عليها كالكلاب الجائعة وتنازلوا عن المحضر مسعين!!

هؤلاء المساكين... يقايضون كل شئ بالمال...

ولا يعلمون ان بعد كل قمة سفح! لكن ما يعزيني : هو ايماني برجوعك واكتمالك، وقدرتي على الاحتمال، والبحث في مغازات البلاد، عما بقي من خلاياك، فاستفت قلبك... وراهن على صبري.

الورم

تتكون المرأة من عدة أشياء، ويتكون الرجل من شئ واحد!

هذا ما بدأ به «......» روايته الجديدة قبل ان يكتشف الورم!

فقد شعر ان سبابته اليمنى متورمه بشكل لا يطاق، وتكاد تنفجر تحت ضغط الدم!!

فرمى القلم على جانب، ورفع عنها العصابة : لفافة كاملة من الشاش النظيف. لكنه لم يستطع رؤية الورم، لم يطاوعه قلبه، فجرى الى المطبخ، وأتى بلفافة جديدة شدها على القديمة، فبدت يده وكأنها قد وضعت فى جبس!!

حاول أن يرش الورم من الخارج، لكن زجاجة اليود لم تطاوعه فرماها على الأرض، وقال ان كل شئ قد أدركه الفساد.. وعلى الإنسان أن يعد أصابعه قبل أن ينام!

وفـيـمـا هو عـائد من هـناك، شـعـر أن الورم لا يطاق بالفـعل، وأن كـرة من الرصـاص تشـد يده إلى الأرض، بخيوط لا يراها، لكنه يحسـها فى ثقل جبال العالم، فركع على ركبتيه، وتمكن ـ بعد جهود جهيدة ـ ان يحمل يمناه بيسراه، وبمشقه لافتة رفع سماعة التليفون وطلب صديقه الطبيب على وجه السرعة.

ولما أتاه بالروب وشبشب الحمام ثار الكاتب فى وجهه واتهمه بالإهمال، ومعاداة الثقافة. ثم صرح بانه لم يكتب حلقة الغد.. ويتعين عليه ان ينتهى منها الآن قبل الطبعة الأولى.

وقبل ان يشعل الطبيب سيجارته طلب ان يرى الورم، فحاول الكاتب ان يؤجل ذلك. لكن الطبيب اصر، فرفع الكاتب فوطة الحمام عن كل ذراعه وهو يتفصد ألما ورعبا وحتى يقلل من حدة البلوى أعطى ظهره للطبيب، وتركه يفك فوطة السفرة ومنديل زوجته الراحلة، واغمض عينيه بقوة خشى معها ألا يستطيع فتحها بعد ذلك، فعاود الصراخ وطلب من الطبيب أن ينتهى بسرعة، وأن يتوخى الحذر، فالورم كبير، والمصاب وبيل، وقد جاء فى مكان لا

يحسد عليه أى كاتب!

وما كاد الطبيب ينتهى من لفافة الشاش الأولى حتى خارت قواه، وضايقه العرق ولزوجة الإبطين، فجلس على مقعد قديم بالمطبخ البعيد.. وشرب جرعة ماء قبل ان يواصل عمله.

وحين انتهى من اللفافة الأولى، وبدأ فى الثانية، كان قد شرب ماء الثلاجه كله وبلع قطعتى ثلج!

وحين وصلته آخر ياردة من الشاش قرأ المعوذتين، وجفف عرقه ونظارته التى تضببت وحين ذهب إلى المكتب ليرى الورم وجد صديقه يختفى تحت مكتبه وهو يرتعش من الألم والذعر وما كاد يسمع خطو الطبيب حتى انتفض صارخا.. متحفزا.. وقد وضع يسراه على جلدة المكتب.

وما كاد صديقه يطلب اليمنى ليرى الورم حتى رفض ذلك على الفور، وأخفى كل جسده تحت المكتب الوثير فتركه الطبيب ، وذهب ليعود بالشاى والكيك وحين انتهى من سيجارته طلب من صديقه ان يتجمل بالصبر، ويرفع يمناه. فغضب الكاتب وسأله معاتبا : ألا تصدقنى؟

فأكد أنه شخصيا يصدقه، ولكن...

- ولكن ماذا؟.. من يصدقنى إذن؟ انظر إلى اليسرى لتعرف حال اليمنى!

وبحيلة كان يفعلها مع الأطفال قبل أن يتخرج سحب يمنى صديقه فلم يجد شيئا.. وحين صرخ الصديق من جديد، أمعن النظر فلم يجد سوى فسيلة فى حجم رأس الدبوس فنزعها على الفور، وترك صديقه يصيح من تحت المكتب لاعنا الجميع، ومؤكداً : انه لا يعرف سوى الحقيقة.. ولا شئ غير الحقيقة.. فلماذا لا يصدقه الناس، والأصدقاء؟.. وما معنى ان نشتق الصديق من الصدق، وصديقك من صدقك.. و.. أطفا الطبيب سيجارته بآلية، وهو ينفث آخر نفس وبنفس الآلية التى أشعل بها السيجارة، وأطفأها، استل سكين المطبخ وقطع إبهام صديقه الكاتب والقاه فى سلة القمامه..

وقبل ان يغلق الباب خلفه، استدار الى صديقه الذى اعتدل على مكتبه فرحا متألقاً وقال :

- الآن.. تستطيع أن تكذب!!

حارس الغيوم

من خلف زجاج نافذة شقتى السفلية، الموشاة بحبات المطر ووحل الطريق

رأيت الضباب يحجب المدينة، ويغسل البيوت والشجر

ورأيت البرد والظلام.. ورأيت السكون والمطر

فها هو ذا الشتاء قد أتى - شتاء العمر - وها هى المصابيح الكهربية تلقى بضوئها الاصفر الشحوب على وحل الطريق فتلمعه

وهاهى السنون تمضى..

وبكارة القلب تذوى!!

هل كان بمقدورى فتح النافذة.. وترك المطر يسقط على منامتى وسريرى البارد؟

هل أمد أصابعى كطفل صغير وألمس الضباب؟

هل شعرت بغصة، حين وقفت على أطراف أصابعى، ورأيت المطر يغسل الطريق، والريح تجرف أوراق الشجر

وتكورها في نهر الشارع، ثم تهز المصباح المتدلى من عامود خشبى على شاطئ النيل؟

هل لبست معطفى الواقى، وبحثت عن كوفيتى وقفازى القديم؟.. حين دخل سيف الريح، وبعثر فحم المدفأة؟

لكم وددت لو أبكى فى جب، لو أصرخ فى صحراء سادرة، لو أطفى نور النجوم بنفخة من فمى، لو أطرد تلك الفراشة الثقيلة.. التى تتمطى على جبال صدرى.

لكنى رحت أرقب الدموع، وهى تتحد سيولا على زجاج النافذة. فهل كنت أرقب السيول وهى تتحد، أم أرقب النجوم وهى ترتعد؟.

فكرت أن أغسل أسنانى وأنام جائعا، وفكرت أحلق ذقنى وأخرج للناس شاهراً رسالة الواد البعيد، لكنى وجدت البرد لا يحتمل، والمعجون قد تجمد بردا.. فركلت مقعدى الوحيد، وفتحت الباب قبل أن أختنق ثم دفعت بجسمى إلى الخارج.. حيث البرد والإعتام.

My Dear father

My kisses and greeting for you

from the ice countries..(#)

كانت السيارات تمخر الشارع الطويل، وتنثر مياه المطر على الرصيف المبتل، وبداخلها أناس مبتلون، يحتضنون الدنيا.. وآخرون مشبعون بالحزن والرطوبة!

I write for you through these Last Distances with

my hot greeting and the permenant love

I wish to be good

After that :-

كانت العودة إلى البيت ممكنة، حين صفعني البرد، وأشعل النار في زفيري، لكني لم أنظر خلفي، حين رأيت الغيوم تحجب النجوم، ورأيت المصابيح الكهربية على جانبي الشارع تتراقص على أعمدتها الخشبية القصيرة.. وتعكس توترها على مياه المطر

- من؟.. بدران البحيري؟.. ها أنت ذا من جديد.. كيف حالك يا بدران؟ :

نظرت حولي فوجدتني المعني بالكلام، فسندت ثقلي الى الحائط القريب، وآلمني ثقل الضباب!

- هيه.. ألا تذكرنى..؟ أنا عمران البلتاجى.. الا تذكرنى؟

حدجته بارتياب، ونفيت مبتعدا!

كان وجهه غائرا، واصابعه ترتجف من البرد والكهولة.

ألست أنت الرقيب بدران؟

- النقيب زهران!

- يا إلهى.. كيف تنسانى يا بدران.. كيف تنسى عمران؟

شعرت بالاختناق، ولابد أننى تركته يقترب منى أكثر من اللازم، لأنه قال بألفة أزعجتنى :

- أنا الرقيب عمران.. زميلك فى جيش الحلفاء... بمنطقة العلمين حملتك بيدى هاتين من تحت دبابة الألمان. يالها من صدفة.. ولكن قل لى ماذا فعلت يابدران؟

- فى ماذا؟ «قلتها بتحفظ وأنا أخفى خطاب ابنى الوحيد الذى بلله المطر»

- فى ماذا؟.. فى ساقك؟.. سمعت انها بترت.. و .

- اسكت.. اسكت!!

ولابد أنه شعر بالاهانة، لأنه تريث قليلا.. قبل أن يسألنى بصوت خفيض ومتباسط،، عما اذا كان المعاش يكفينى أم لا.. وحين لم أجبه، تباسط أكثر، وكشف عن ساقه الصناعية :

- لقد بترت ساقى مثلك يا بدران.. ولكن فى حرب اليمن.. أنظر.. هاهى.. و ..

حاول أن يكشف عن بدايتها فرددته بمظلتى المبتلة حتى يبتعد عنى :

- ابتعد.. أنت سكران.

- سكران؟ قالها وقد بدت عليه الإهانة.. لكنه ما لبث أن تدارك الأمر.. فأخرج سيجارة مبتلة، ومدها لى فرفضت، فأخرج كبريته المبتل، وحاول أن يشعلها، ولما فشل أعادها إلى جيبه المبتل، وقال كلاما مبتلا، فهمت منه ان السماء ما تزال تمطر!!

- أحالونى للمعاش مثلك فلم أجد ما أفعله. هل معك سيجارة؟

قذفت له بسجائرى فتناول واحدة واحتفظ بالباقى.

- اذن فأنت لا تذكرني.. يا للدنيا العجيبة!

قال ذا، ومط شفتيه امتعاضا، ثم ألتفت إلى السحب المتصادمة، حين لمح القذائف الملونة تطلق صوب النهر: - كل سنة وانت طيب يا بدران.

My father. Excuse Me if I Write For You in English Because My Arabic is Not good The se days.

- أمتأكد أنك لست الرقيب بدران؟

- زهران.

- الم تكن بالوحدة رقم ٤٧؟

- ٤٨

- يمهل ولا يهمل!!

كان الناس -، على الجانب الآخر للنهر - يمرحون ويرقصون، ويفتحون العام الجديد بينما السيول ما تزال تهمي وتوحل الطريق.

But i,m angry Because you do not rply on my letter that i had sent for you from towo years a go.

- ايه.. مات الذين كانوا يأكلون في الشوارع، ليأكل

معهم كل عابر سبيل، وبقى من يغلق على نفسه الباب، ولا يرد تحيتك.

I send for you with my candian wife kisses Dr margrette my sons Gemes - carol and my mother. This is anew photo so we hope to keep our room closed as we left it

- الليل مقبض.. لكنى أشعر فيه بنفسى!.

- اذن فأنت موجود!!

- هل تقول الحقيقة؟

- أقولها.. أليست حقيقة؟

- لا أدرى يا بدران.. لا أدرى. ولكن قل لى ماذا تعمل الآن؟

كان السؤال مفاجئا، وكان يتطلب جهدا كافيا لاجابته، لكنى لم أر أى جدوى فى البحث عن صيغة توحى بأننى لا أعمل.

- لا تعمل؟ لماذا يا بدران؟.. لا.. لا.. أنت غلطان!

- غلطان؟

ـ نعم غلطان.. لماذا لا تشغل نفسك ووقتك و..

ـ وهل تعمل أنت؟

ـ أنا؟.. لا.. ولكنى أجلس فوق السطح؟

ـ السطح؟ وماذا تفعل فوق السطح؟

ـ أحرس غرفتى من اللصوص.. وأحل الكلمات المتقاطعة.

ـ فقط؟

ـ وهل هذا عمل بسيط؟ اللصوص يا أستاذ فى كل مكان.. ويجب أن نحترس!

ـ ياله من عمل!!

فهم ما أعنى ، فتهدج صوته وهو يقول :

ـ ليتهم علمونا شيئا غير الزحف على البطون!

وحين دمعت عيناه، شعرت أننى قد ورطت نفسى وأنه ما كان لى أن أفعل ذلك ابدا.. لأنى اضطررت لأن أقول دون أن تكون لدى صورة واضحة عن شئ واضح :

ـ لكننا أدينا واجبنا تجاه الوطن.

ـ هل أدينا واجبنا تجاه الوطن؟

- لابد اننا فعلنا ذلك.

- هل فعلناه؟

- ألم يعدنا الانجليز بالجلاء حين ننتصر على الألمان بالعالمين؟

- وهل انتصرنا على الألمان؟

- انتصرنا على الانجليز؟!

- بدران.. أليس كذلك؟

- زهران.

- ٤٧؟

- ٤٨ .

- اننى فى غاية الدهشة يا بدران.. فأنا أسكن هنا بجوارك.. وطوبه منك يمكن أن تكسر زجاجى. فلماذا لا تزورنى يا أخى؟ أليس لديك طوب؟!

قال هذا وحاول أن يضحك فلم أجد ما يضحكنى وتمنيت أن يمضى بسرعة، أو أصحوا إن كنت فى حلم. فقد علمتنى الحياة أن «نصف كلام البشر لا أهمية له، ونصفه الآخر يمكن تأجيله»!.. كان المطر قد تحول إلى

سيول حين أصر «عمران» أن يشعل سيجارته، ويبدو انه ضاف بنفسه لانني سمعته يهذى ويلعن الجميع.. ورأيته يلقى بما فى يديه على الطين ويصيح فى السماء معاتبا :

- ماذا تريد مني؟ :

سمعنى أستغفر الله فخلع نظارته الطبية ومسحها بعصبية زادتها اتساخا.

- بدران أليس كذلك؟

- زهران

- الوحدة ٤٧؟

- ٤٨

كانت مدافع الميلاد قد توقفت، وكف الناس عن رمى الزجاجات خلف العام القديم، حين استدار عمران مودعا

- هل تريد شيئا يا بدران؟

- شكراً

- أنا اتكلم بجد.

- شكرا ...

- طيب سلام عليكم.

ـ وعليكم.

ولا أعـرف مـاذا داهمنى بعـدها.. هل هـو الفـرح أم الهم؟ فـقد توجب على أن أبذل جـهدا ـ كان يمكن تجنبه لأنسى ذلك الرجل الثقيل.

وبات على أن أعيد ذلك التوازن الذى حرصت عليه منذ سنين عـديدة مـؤكـدا به على مـجـالى الجـوى وحـدودى النفسية والوجدانية.

لكنى حين تأملت حـالى : بدت غـرفـتى قبـرا، وسـريرى تابوتا وثيـابى كـفـنا، فكرت أن أسـتـدير وأبارح المكان، فوجدته فى وجهى :

ـ لا تسـأل فيها.

ـ فى ماذا؟

ـ فى الدنيا.. خذ..

ومد لى سيجارة محشوة فأبعدتها وصحت منفجرا :

ـ ولماذا يكون هذا هو الحل الوحيد دائما؟!

ـ وهل لديك حل آخر؟

وحين لم أجبـه ضـحك ضـحكة المنتـصـر، وقـال «ان

الانسان لا يستريح فى الدنيا»

- أيها الرجل الأحمق المسطول.. لماذا تضايقنى وتطاردني؟.. ماذا تريد مني؟

خرجت هذه الكلمات من أنفى المزكوم غامضة، مندغمة جعلت عمران يفهمها بصعوبة، وينتظر قليلا حتى يستوعبها قبل أن يغير الموضوع :

- المهم أننا أدينا واجبنا تجاه الوطن.. أليس كذلك؟

قلت أسايره وأصلح ما أفسدته حدتى :

- أظن أننا فعلنا ذلك!

- لابد أننا فعلناه.. ولكن قل لى من كنا نحارب؟!

- الأعداء طبعا.

- أعداء من؟

- أعداء الوطن!!

- الحلفاء تقصد.. أم المحور؟

- الاثنين.

- الاثنين؟

- الاثنين!!

ـ المهم أننا أدينا واجبنا .. وكفى!

كدت أن أقول تجاه من.. لكنه أشاح بوجهه وضحك فضحكت!

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة، وكان على الفجر أن يشق ركاما مرعبا من السحب المظلمة التى تجمدت فى السماء. وسجنت كل الطيور

ـ صدقنى يا بدران.. لم أعد أعرف بماذا أؤمن بالضبط؟

ـ وهل لابد أن تؤمن؟!

ـ الا يجب أن أومن؟

ـ .....

بدران أليس كذلك؟

ـ زهران؟

ـ ٤٨؟

ـ ٤٧.

وفى غفلة منه، فتحت باب شقتى وأغلقته خلفى.. وحينذاك غمرنى دفء وارتياح، وشعرت بالدماء تملأ

رأسى واطرافى، وانقضت دقائق خلته قد مضى.. لكنه أفسد هذا الاحتمال، حين دق الباب دون أن يكل أو يمل:

- بدران.. افتح الباب يا بدران.. نسيت مظلتك!

صحت من خلف الباب وقد تملكنى الضجر :

- دعها عندك.. ورح لتنام.

- هل عندك شاى يا بدران.. سحلب.. جنزبيل؟ :

- ......

- بدران؟!

- نعم؟!

- متى ستكسر زجاجى؟

- حين تموت تحت أنقاضه!!

وحين نظرت من ثقب الباب وجدته يكلمنى وهو يبول على الحائط القريب، ويولينى ظهره.

my Dear father
Excuse me a bout this long lettr
so I hope to accept my merci

Your single Son
Samir
- U .S. A

ثم رأيته يستدير نحوى إلى المقعد الوحيد، ووضعته خلف الباب وفكرت أن أسحب السرير أيضا. لكنى خشيت ان تعاودنى الآم المفاصل.

ـ لا تنس يا بدران سأنتظرك فوق السطح.. هاهو أمام شقتك! سمعته يبتعد وهو يغنى لنفسه فشعرت بغربة طارئة ووحشة لم أعهدها من قبل.

وحين فتحت الباب وجدت كومتين من الطوب على جانب، ورأيت المطر يغسلهما.. ويزيدها التماعا.. فكرت أن أناديه ليؤنسنى.. لكنى لفظت الخاطر بسرعة وتشاغلت بنفسى.. كانت امعائى ترتعش من البرد.. وساقى الصناعية تزداد ثقلا وتصلبا، وحين تأملت ما قاله «عمران» وتخوفه الذى يستند إلى حقيقة لا مهرب منها.. منطق محكم وواقعى بالفعل، لكنه يبدو ـ لفرط واقعيته وزخمه ـ مرعبا وثقيلا..

إذ لم لا يتوتر المرء إذا كان من الممكن أن ينام ذات ليلة.. فلا يصحوا أبدا؟

صعدت إلى النافذة التى تحاذى نهر الشارع فرأيته

هناك يمضى بخطوات ثقيلة نحو النيل.. ناديته فلم يسمعنى، فكرت أن أكرر النداء لكنى خشيت أن يسمعنى فيعود!!

كانت السحب تتصادم وترمى بالشرر، حين رأيته يربت على ظهر جرو يهز ذيله المبتل تحت شجر الصفصاف بينما الجرو يستسلم للدفء والأمان.

بحث «عمران» فى جيوبه عن شئ يعطيه للكلب، فلم يجد سوى منديل محلاوى وسيجارة محشوة. فرش عمران منديله للكلب وأمره بالرقود فأذعن، وما كاد يتركه حتى قام من جديد.. فعاد عمران مربتا على ظهره حتى استكان الكلب ونام على ظهره. مشى عمران عدة خطوات، وعاود الالتفات إلى الكلب مطمئنا، وحينذاك خلع ثيابه بهدوء مدهش، حتى صار عاريا كما ولدته أمه. دلكت عينى عدة مرات. ورأيت الكلب يدلك عينيه أيضا.

والمجنون.. يستحم فى هذا الوقت؟!

كانت السماء تمطر بشدة، حين تقدم «عمران» بهدوء وثبات لا يصدق نحو النهر.. ثم.. ظل يتقدم ويغوص..

يتقدم ويغوص.. حتى اختفى تماما فنبح الكلب الصغير، ونبش الأرض متراجعا . إنتظرت أن يعود أو يقوم.. يرفع كتفيه ويستغيث شببت على أطراف أصابعى فسقط الكرسى وسقطت فى الظلام!

فتحت الباب وسعيت نحو النهر هائما : عمران.. عمران.. عمران؟

زاد الكلب من نباحه، واصطخبت الرياح.. وحين وصلت الى هناك متعكزا.. كانت آخر شهقة لعمران قد أحدثت دوامة صغيرة ظلت تكبر وتكبر، حتى تلاشت مع آذان الفجر!

ولابد أننى أطلت الانتظار، واستغرقنى الموقف تماما.. لأننى لم أشعر بالكلب الصغير وهو ينبح بشدة، ويجذبنى من ثيابى فى يأس ورجاء!

ولابد أننى ركلته بعنف حين مزق ثيابى لانه عوى مبتعدا.. ووقف يرقبنى فى صمت وعتاب فهل كان يرقبنى أم أنا الذى أرقبه؟!

كل ما أدريه هو أننى شعرت بالذنب يخنقنى، وان ثمة

ما يحترق فى داخلى، ويغوص فى اللزوجة والظلام.

ولابد اننى ضربت الماء بعكازى، لأننى شعرت به على وجهى.. فسعيت متعكزا إلى شقتى وقد ملأ الطين قدمى العارية، وقلبى الواجف،

وعند الباب وجدت كومتى الطوب تلتمعان تحت المطر فملأت كفى بما تيسر، ورجعت النهر اللعين، فسمعت زجاجا يتحطم،، ورأيت قنابل تتفجر.. وعواء يتجدد، فأغلقت بابى الوحيد.. وارتميت على سريرى البارد، وشعرت بالزرقة تغزونى، والحزن يخنقنى ويكوينى..

فيما شخصت عيناى الدامعتان.. المقرحتان.. الذاهلتان.. على فراغ النافذة!!

---

* النص الانجليزى رسالة من الابن المهاجر

أيامك يا ابراهيم

القرين

فى تلك الأيام من شهر نوفمبر، لم تكن الأمطار تسقط بمثل هذه الضراوة، ولم يكن من السهل أن تصطخب فيها السحب، وتتشاجر الأشجار والرعود!

لذا شعرت بالسماء تبكى من حولى، وأنا أشق طريقى إلى جنازة إبراهيم الدومين - فى بلدته البعيدة - قبل أن يدركنى الظلام، وكل ما معى : ورقة تلغراف فى حجم الكف، بللتها الأمطار أو الدموع، وعقل متسائل، كل ما يرجوه أن أصحو إن كنت فى حلم، أو أهب خاشعاً إن كنت فى كابوس!

فهل كنت أعدو بين المزارع، أم أمشى على قدمى؟

أزحف أم أطير؟!

بوسعى الآن تذكر بعض ما جرى، بوسعى إضاءة كل شموع الذاكرة، فأرانى أزحف على بطنى، وأراه بجوارى،

والإنفجارات من حولنا تهيل الرمال، وتفتت الحديد والأكباد.

**

لم يكن أمامنا إلا أن نزحف إلى القناة، ونعبرها دون أن نحدث صوتاً أو يدركنا صبح. بينما المجنزرات من حولنا تهدر في غضبٍ ساحقٍ، وتسوى كل شئ بالأرض!

لم تكن صدفة أن يدفن زملائى تحت الرمال، أو تتطاير أجسادهم كاليمامات، ولكن الصدفة أن أسمع «إبراهيم الدومينى» وهو ينادينى بصوت غارب آفل، يكاد يكون آخر ما لديه من طاقة على الكلام والهمس :

- عبد الحميد : ساعدنى، أصبت!

فعدت نحوه زاحفاً، ولم يكن بينى وبين القناة سوى خطوات قد تنجينى، وتنسبنى إلى الأحياء، وحين وجدت ما يمسك منه، سمعت صرخة تكبح، وعويلاً يوأد، وشعرت بشئ دافئ ولزج يخضب كفى، ويرعد فؤادى، وما كدت أسحبه من ذراعه السليمة، وأزحف صوب الماء، حتى سمعنا المجنزرات تحرث المكان الذى كنا فيه قبل ثانيتين،

وسمعنا أصواتا حانقة، وإنفجارات مارقة يغشى شررها العيون، وتتفتت من هولها الأكباد.

لم يكن يظهر منا - في ذلك الظلام البهيم - سوى أنفينا، ومع ذلك سمعت إبراهيم يتأوه لرصاصة جديدة، ويروح في غيبوبة تشبه الموت..

وعلى ضوء طلقة مضيئة، لمحت دماً يختلط بالماء من حولنا، ولوحاً خشبياً من السفن الغارقة يسعى نحونا - وكأنه ملاك حارس - فحملت إبراهيم إليه، ولم يعد يعنيني دم من فينا يخالط الماء كنت أعرف أن المشاعر القوية تؤجل الشعور بالألم، لذا بات على أن أبدأ الخطوة الأولى فأقرر : إن كان على أن أنجو بجسمي وحياتي وحدي، أم أسحب رفيقي الطريح - حتى ولو كان جثة - إلى وطنه ومحبيه؟

لم يكن الإختيار صعباً، بعد أن سمعت آهة منه، وبعد أن كنت قد وضعت حياتي على كفي، وراهنت بعمري من أجل ذلك «الاخر»، وخايلني ذلك الشعور الذي قد يدفع بأشد الناس أنانية، لأن يلقى بنفسه في الماء أولاً لينقذ

غريقاً.. قبل أن يفكر في ملابسه أو حياته، أو يعنيه إن كان من ينقذه عدواً أم صديقا!

كنت أقول : يا ولد.. إن كان لك أن تموت، فلتمت وأنت واقف كالأشجار. وأعرف أن ذلك لم يكن ينبع عن سلوك عاطفي فارغ، وإنما من نزوع فطرى تسنده قناعة بأن : أحمق الشجعان من لا يحصد ثمار شجاعته، وأجبن القتله من يندم على جريمته!

- عبد الحميد.. إنقذني.. أصبت!!

فأغلقت فمه بكفي، وما كدت أسحب سلاحه الثقيل لألقى به في الماء، حتى شعرت به يحتضنه باستماتة، وكأنه يخيرني بين إنقاذه بسلاحه أو تركه يغرق به..

إحساس ظل يفعمني، ويوقد كل شموع الذاكرة، وها أنذا بعد مرور كل هذه السنوات التي كسرت الروح، وغيرت خرائط الجسد، لا أعرف كيف عبرت إلى وطني في ذلك الجو الجحيمي المرعب، ومن أين واتتني كل هذه القوة، التي أعانتني على العبور بسلاحي، ورفيقٍ يئن وينزف، على محفة خشبية؟

كل ما أذكره، إنهم باغتوني ورفعوا سلاحهم في وجهي.. وحين عرفوا أنني منهم، سحبوني وإنتشلوا رفيقي من الماء، وبعدها شممت رائحة يود وفورمالين، وسمعت أوامر للممرضات والنواب، وإستدعاء للممارسين والحكيمات، ومن فرجة غائمة بين رموشي المثقلة، وعقلي الذاهل، رأيت لمبات النيون تقترب وتبتعد، ورأيت أناساً يتميزون بطاقات أنوف واسعة، وعيون شاخصة، يدفعونني أمامهم، ويأمرون غيرهم بإخلاء الطريق، وقبل أن يغلقوا الباب الجرار، رأيتهم يدفعون إبراهيم ـ وقد سال دمه ـ على «ترولي» إلى غرفة أخرى.

وما كدت أعرف أنه ما يزال على قيد الحياة، حتى هزمتني الدموع، فقد بات بإمكاني ـ أنا العبد الفقير الذي سلبه إخوته الكبار ميراثه ـ أن أبث الحياة في غيري، وأن أكون سبباً في نجاة إنسان وخطأً فارقاً بين الوجود والعدم!

كانوا قد قطعوا لإبراهيم ساقه اليمنى، ووضعوا ذراعه الأيسر في جبس ثقيل، وما كاد يعرف ما جرى حتى

تملكه الرعب والجنون.. وراح يسألنى عما حدث، وعما أتى به إلى هنا؟ وقبل أن تخضب الفجيعة أهدابه، ربت على رأسه، وجلست إلى جواره، تأملنى برهة وسألنى جاداً. عما حدث بالضبط، فأفهمته أن أفضل ما حدث : أنك ما زلت على قيد الحياة!

« ـ إذن.. أنا مدين لك بحياتى!؟

ـ لا تبالغ.. فقد فعلت ما كان يجب أن يفعله غيرى.

ـ الناس تهتم بالظل، ولا تهتم بالشجرة التى صنعت الظل!

ـ لا تبالغ.. فقد نلت حظى ـ أيضاً ـ من السعادة.

ـ هل أستحق كل ذلك؟

ـ تستحق لأنك تحب الحياة، وتملك أسبابها.»

ومن خطاباته عرفت أنه تزوج وأنجب ولدين، وعرفت أنه سافر ورشح لمجالس محلية وشعبية، ونجح فى تجارة، وفشل فى زراعة. وعرفت أنه بكى وهو يحمل حفيده لأول مرة، وها هو ينتحى جانباً ليكتب لى شاكراً متذكراً، وكيف أنه يرفل فى نعيم ساهمت فى صنعه، وشاركت فى

إحيائه، وإدامته!

وكلما أرسل يدعونى لفرح أو عيد ميلاد أو «سبوع»، أعتذر بحجة المرض، أو الملل أو بعد المسافةبين عزبته والعاصمة، لا سيما بعد أن تركتنى زوجتى، وعايرتنى بالعقم والشيخوخة حتى أتتنى برقيته إلتى لم يكتبها بخطه : «توفى إبراهيم الدومانى باح اليوم. البقاء لله». وائل الدومانى.

كانت الناس تتدافع لتحمله على أكتافها، حين دفعت بعضهم وأخذت مكانه، أشفق البعض، وسخر من لم يرنى وأنا أحمله ـ بسلاحه ومهماته المبتلة ـ على كتفى، وأخوض به فى الظلام والأهوال. وكلما دفعنىْ التيار تمسكت بخشبته، وثبت عينى على أقرب ضفاف!

ـ وحدوه.. البقاء لله!

نعم.. لم أكن أضرب الماء بذراعى أو أركله بساقى، لكنى كنت أضرب الموت، وأقاوم الفناء والعدم، وأختبر قدرتى على الإنخراط والإيثار، وأعرف أن أفضل أيامنا لم نعشها بعد!!

- وحدوا الله.. وحدوا الله.

لم ينجح أحد في إزاحتي، أو إغرائي بمقدمة الجنازة، إذ كنت أقبض على خشبته بقبضتي، وفي داخلي تصطرع أحاسيس الفناء والغرق، ولا أعرف كيف داخلني ذلك الشعور الذي يربط بين حملي له وعودته للحياة، ففي يوم بعيد قريب، كنت أسبح به بين الألغام، ودمه يسبقني وأحسه رذاذاً على وجهي.. لكن في ذلك كله لم يمنعني من سحبه خلفي، في سعي «دونكيشوتي» مفعم بالأمل والبقاء

- البقاء لله.. أسعى.. وحدوه

بوسعي الان تذكر كل شيء، ولكن بما تنفع الذكرى؟ أو تفيد الذاكرة؟!

وقبل أن يدخلوا المدافن بعشرات الخطوات تركتهم يحملونه، وأوليت للغطهم ظهري. ومع كل جرفة فأس كانت تهال على نعشه، كنت أشعر بأنفاسي تخبو وتنجرف، وروحي تغيض وتفيض. ولم ينقذني من سكرات الكابوس سوى يد صغيرة راحت تربت على كتفي، وتعيدني للحياة والأحياء : شكراً يا عمي.. الباقية في حياتك.

ـ «عمى» ما أجمل هذه الكلمة! وقبل أن أحتضنه ذهب ليلقى النظرة الأخيرة

ومن بعيد أتانى صوت إبراهيم سماويا مستجيرا :

ـ عبد الحميد.. إنقذنى. دفنونى يا عبد الحميد.. إنقذ إبراهيم!

فجريت نحوه كالمجنون، مقاوما عجزى وعثراتى.. ويكفى اللتين تشبهان مخلب الدب المحبوس، رحت أحفر قبره، وألقى بالطين والحجارة، وكل أملى أن أدرك اخر أنفاسه قبل أن تنقطع، أو أوقف آخر شهقة، آخر إنقباضة لكف أو إغماضة لعين!!

ـ إمنعوا هذا الرجل.. إرفعوه.. جرجروه!

«وأنا أحاول أن أدفع من يمنعنى، وأركل من يلمسنى.. وأذوب فيما يشبه الحلم :

ـ عبد الحميد.. دفنونى يا عبد الحميد.. دفنونى!

وأنا أصرخ كالمفجوع، وأطيح فى الجميع». وحين حاولت أن أعود إليك، حملونى عن الأرض، وعاملونى بخشونة من يجب أن يفرق بين النور والنار.. فأى نور

وأى نار؟

وعلى سـواعـدهم لم أسـتطع أن أسـبح إليك، فظللت أضــرب بذراعى، وأركل بســاقى فى قناة خلت من الماء والأمل، وعـينى المخضـتين بالندى لا تحـيـدان عن تلك الحفرة الدقيقة التى حفرتها فى قبرك العاطر، فراحت تصـغـر وتبـعـد، وأنا أرنو إليك، وأدرك قـهـر عـجـزى وكهولتى.. فلا أملك إلا أن أمد قلبى الدامى نحو ثغرك البسام يا ابراهيم.

البرطوشي

وحتى هذه اللحظة لا نعرف بالضبط..

فأن يأتى غريب إلى قريتنا الآمنة، وينزل عن حمارته الصهباء المطهمة، دون أى كلل أو ملل، ثم يسأل أول من يقابله عن «البرطوشى».. فذا لا يلفت النظر ولكن أن يتكرر ذلك كل يوم.. كل يوم، دون أن يفقد حماسته، أو تفتر عزيمته، بل ويصبح الحضور اليومى هو شغله الشاغل.. الذى ينحى لأجله كل ما عداه أو تلاه، فذا ما يستوجب النظر، ويحفز البصيرة!!

فى البداية لم نكن نتحفظ على شئ.. فقد درجنا على ذلك ومارسناه مع بعض القرى المجاورة، لا سيما حين تنقطع المياه، أو نتبادل الأفراح أو التعازى، أو تتأخر طائرات الرش، أو يهرب حمار أو جاموسة، أو تحمل لنا الترعة جثة جديدة..

لكن أن يأتى رجل -طويل عريض - يتكون من شارب مرفوع، وطربوش مقموع، وثياب مكوية، وبلغة بغدادية، وخيزرانه مقصيبة، وخاتم بفصين ودون أن ينزل عن حمارته : يسأل، ثم يعود من حيث أتى، فذا ما يثير الضحك! ليس لأن السؤال - لا سمح الله - حرام ، أو يدور حول مجهول أو معلوم، ولى أو أراجوز، ولكن لتلك الجدية التى تكاد تشرف على البكاء، تلك الخسارة الطافحة. اللافحة، التى لا تساويها أى خسارة أخرى، ولا يفهمها إلا من يكابدها.

في البداية : تصورنا أنه يمزح، أو يعلن عن سلعة ما بطريقة مبتكرة، فعرضنا الشاى، والسجائر، وعزمنا بالغداء أو العشاء، لكنه أدار ظهره وأكد أنه لم يأت ليأكل أويشرب، لكنه أتى لمهمة لا تقبل التأجيل أو التأويل، و هى أن يرى «البرطوشى» رأى العين، ويلمسه بيديه هاتين!

وإزاء هذه الجدية اللافتة، وعند هذه النقطة بالتحديد، لم يكن بوسع أحدٍ أن يمنعنى من الضحك. حين تذكرت تلك الإعلانات التليفزيونية الوامضة التى تعلن بجدية

مصطنعة عن اسم ما، وتدعونا للانتظار غدا، ثم نعرف بعد شهرين انها سلعة تافهة لا تستحق الانتظار!

فمن يكون البرطوشي هذا؟ وما سعره؟ وهل هو نوع جديد من الصابون مثلا؟ أم لعبة مبتكرة من لعب الأطفال؟ وهل اسمه هذا لقب أم صفة؟ فاعل أم مفعول؟!

ذلك مالم يجب عليه الغريب!

فى المرات الأولى لحضوره، كان سرج حمارته لامعا، وكان الرجل يتمتع بملاحة لافتة، حتى خفنا على نسائنا منه، لا سيما من يضعفن أمام خواتم الفضة، ومن يضع الفازلين على شعره، ويترك شاربه مطاراً للصقور والعصافير.

وحين شكوناه لشيخ البلد أكد أنه مشبوه بالفعل، لكنه لا يستطيع أن يقبض عليه بلا دليل رسمى، أو مخالفة صريحة!!

فلم يكن أمامنا أرخص من الحذر، بعد أن شكك البعض فى أن يكون لص مواشٍ، أو زئر نساء، أو نصابا دوليا، فبتنا فى الزرائب واهتممنا بنسائنا، وتوقفنا عن

شراء الجرائد اليومية!

وما أن أتى يوم الجمعة حتى أكد خطيب الجامع ان الرجل من أحباب الله، وأن تاريخنا الجليل زاخر بطوائف المتصوفة، والساعين فى مناكبها حتى جاء أرجحنا عقلا فبصق بالقرب منا وقال : إن أعداء الله كثيرون..

أشهرهم الجهل، وأهونهم كيد النساء. ثم بصق ثلاثاً وأكد : أن الظلمة لا حصر لها.. أشهرها ظلمة الروح، وأخطرها ظلمة القبر!!

ولم يسكت حتى عشيناه ، ومنحناه كسوة الشتاء!

ولكن من يكون «البرطوشى» هذا؟ ولماذا اختارنا نحن بالذات ليقيم تجاربه؟.. أو يطرح نبوءته؟

لم يكن للوهم أى معنى.. إذ ما الذى يدفع رجل بكل هذه الجدية والصرامة لكى يأتى فى الحر اللافح، والبرد السافح، ثم يعود دون أن يشرب جرعة ماء أو يتفيأ شجرة؟

كان يمكن ان ينتهى الأمر عند هذا الحد، لولا ان تبرع «أحمد أبو سماعين» فأكد انه ضبط الغريب يختلس النظر

إلى «فاطمة راضى» وهى تغسل ساقيها فى الترعة القبلية، وتطوع محمود الهنداوى - الذى رشح نفسه فى كل الانتخابات وانتهى خفيرا فى شونة - بأن يتابع الغريب ليعرف أصله وفصله.

لكنه أتى فى اليوم التالى راقداً على حمارته العجفاء وما إن بلغ مشارف القرية، وتأمل الناس بعينيه الصامتتين الذاهلتين، حتى طب ساكتا فطارت عصافير.. وثار غبار.

قالوا :....

وقلنا :....

وفى الميعاد اليومى جاء الغريب على حمارته، وقد إزداد شاربه شيبا ودون أن يتطرق لأدنى موضوع سأل سؤاله المكرور، وتلقى الإجابة المكرورة، ثم لكز حمارته العجفاء فأخذت طريقها المعروف إلى حيث أتت ولم يعد للصمت معنى..

ففى الصباح رمت لنا الترعة بجثة مشوهة الملامح خلناها جثته.. لكن المأمور حدد النسب، وأكد السبب

فتعاظم الخوف وتناقل القلق، حتى أتى الغريب.. وما كاد يسأل سؤاله المعروف.. حتى جرى خلفه واحد منا، وأمسكه من تلابيبه، ثم سأله عن اسمه وطلب بطاقته، وسبب حضوره الحقيقى فلم يظفر بشئ! وبعد أيام لمنا جثته من تحت قطار. وحينئذ خطب العمدة فى المصلين - وهى سابقة لم تحدث من قبل - فهون الأمور، وأكد على ضرورة التجاوز وترك الخرافات والمهاترات، وبعد أيام مات بالسكتة القلبية!! فاجتمع فريق من رجالات القرية، وسمحوا لأكبرهم سناً بتعليل الظاهرة.. لكن السؤال الكبير ظل قائما : ولماذا نحن بالذات؟ فنحن لا نتميز عن غيرنا بأى شئ.. ولا يربطنا بالعالم الواسع سوى طريق ضيق : مترب وملتو، ولا نصدر إلا ما يصدره غيرنا.. نصلى ونصوم، نقوم ونقعد، نضحك ونغضب، نأكل ونتناسل.. فلماذا أتى الغريب إذن؟ وهل يضمر الخير العميم أم الشر المستطير؟ وهل للأمر علاقة بتجاهل مولد الشيخ طلحه؟ أم لدخول الكهرباء ومياه الأنابيب؟ قيل : إن «راضى» الحلاق هو سبب كل البلاوى.. فلو توقف عن

الحلاقة فى القرى المجاورة لما حدث ما حدث، وقيل إن التلاميذ هم السبب، فهم يذاكرون على شطوط الترعو والمصارف ويأتون بالجنيات والبلاوى!

حتى خمن مسعد البقال أن يكون الغريب مفتش تموين أو صحة متنكرا فاحتاط فتحى إلابشيهى، وقرر أن يغلق المحل كلما حضر الغريب.. وتطرق الأمر إلى مدير الجمعية فوزع الكيماوى بالعدل، وضبط دفاتره، وقال وكيل البريد لوكيل البريد : حرص.. ولا تخون!

وقال المأذون للمأذون : لا تنزع لحية جارك!

وصاح الخفير : مين هنا..ا..ا..ك.

وحين رأى الغريب على حمارته! «طب ساكتا» حتى اننا فشلنا فى غلق فمه قبل ان ندفنه.

وانفرج الأمر قليلا حين أكد مأمون البغدادى مؤذن الجامع انه رأى الغريب - بعينيه هاتين - يخرج من بيت «هنومة المتصابية» قبل أن يدركه صبح فاستدعوها إلى الميدان وسألوها الأمر فأنكرت. وحين ضربوها اعترفت بمن كان عندها، فأفرجوا عنها، وتأكدوا انهم ظلموا الغريب»!

وحتى يكفروا عن سيئاتهم وشكوكهم : انتظروه حتى أتى في موعده.. وقبل أن يعود جرى خلفه واحد منا وطلب رضاه، ثم مد يده بما جمعناه من نقود وعقود وحلى، لكن الغريب رمى بنظرة احتقار، ومضى إلى حيث أتى!!

وحين عاد ثانية بدا الشيب لافتا، فتضاعف إحساسنا بالذنب وما كدنا نصالحه حتى أشاح بيده الطاهرة، فتوقفت كل المبادرات وزاد الذنب والخزى.. إذ ماذا فعل لنعامله بهذه الطريقة؟.. إن الرجل لم يكلفنا حبة عدس حتى نضايقه ونلاحقه!

ثم : لم لا يكون مجرد «عابر سبيل» يسأل عن أخ ضل أو صديق فقد؟

ويكون كل ما رسمناه وهيكلناه : مجرد وهم وشطح خيال؟

ففى الصباح لم يأت فى موعده فتملكنا الألم، وشب حريق فى جرن القرية، فمسكنا قلوبنا.. وسألناه العفو والرضا. وحين فاضت الترعة، وترادفت المصائب، وبدأت

المهاترات : فطلق سعدون زوجته الثانية، وضبطوا فرحات فى حضن سعدية بنت سعد الله، وخطف الذئب معزة أم شربات، وسقطت بقرة الحاج عجلان فى بئر الساقية، وغرق ابن عدلات فى الترعة القبلية.. ونفق جمل حمدون تحت حمولته..

فلم ننتظر مصائب أخرى، ووزعنا أنفسنا إلى فرق : فرقة تنتظر الغريب عند الكوبرى الجديد، وفرقة تجمع التبرعات والهدايا، وفرقة تدعو طوال الليل والنهار وفرقة عند المقابر، وفرقة على الطريق السريع

فقد يكون الغريب قد غير مساره، ومنح بركاته لقرية أخرى وقد يكون الطريق الموحل منعه من الحضور، وقد تكون الذئاب لكن مالم نختلف حوله هو غضب الغريب علينا، بعد أن فتشنا عن نواياه وشككنا فى مراميه، فأصلحنا الطريق وعمقنا الترع، وتجرعنا البرد والظلام ولم نرجع حتى أتتنا الإشارة، ورأينا البشارة :

فقد رأى أحدنا حمارته العجفاء تأتى وحيدة، وقد هزمها الشيب والضمور ففهمنا كل شئ، وصحبناها إلى

حيث رقدت، وأهلنا عليها التراب.. وعلى مقربة منها بنينا مقاما للغريب، وتحسرنا على أيامه. حيث كنا نتمتع بالصحة والإخصاب.. والإحساس والقدرة، وتساءلنا : كيف نعيش بلا غريب؟

وترادفت أشهر عصيبة حتى أتى اليوم الذى رأينا فيه رجلا بلا شارب يلبس خاتما بثلاثة فصوص لامعة، وحذاء يعكس ضوء الشمس الغاربة، ويمتطى حصانا كالبراق : أبيض مطهما، ورأيناه ينزل عن براقه فى ساحة القرية وكأنه ينزل امام قصره الصيفى، ويسأل أول من يقابله عمن كان يسال عنه : وحين زحفنا إليه بعكازاتنا التى نخرها السوس، وسألناه ممعنين عمن يكون إذن؟.. أجاب بصوت واثق، له صدى الجبال والبحار البعيدة :

ـ أنا عبد القادر البرطوشى!!

في أتوبيس الصباح

و.. الموظفون ذاهبون إلى أعمالهم،، والطلبة إلي مدارسهم والصناع إلى ورشهم، وقف رجل لا يُعرف عمله، يعظ الركاب بحماس لا يفتر، وحمية لا تلين دون أن يتوقف لحظة، ليسترد أنفاسه.. أو يبتلع لعابه!

ودن أن يمتحن سامعيه، أو يختبر استيعابهم، راح يعدد محاسن الجنة، ومساوئ النار، دون ان يهمه سير الأتوبيس أو توقفه، ثباته أو حركته!

ودونما تكليف من أحد، عرج على المعاملات والنوافل ومن النشور إلى الحبور، ومن الحبور إلى النشور، والناس تصعد وتهبط، تنزل وتركب، والقلوب مثقلة بالديون والدروس، والشهر لا يريد أن ينتهي!

تساءل أحدهم : مجذوب؟

فهز الآخر كتفيه، بينما الرجل يَخطِب ويتجلى، وقد بدا

الزبد يظهر على جانبى فمه، وذؤابات لحيته، والعرق ينز ويفز، وحر الظهيرة لا صديق له!

وبعد ان فرغ الرجل من تكفير كل الحكومات والمؤسسات وكاد يعرج على سكان الأرض، ومن بعدهم ركاب الاتوبيس، دفعه رجل يريد أن ينزل فنظر إليه شذرا، وأعطاه الطريق مرغما ومكرها ليعرج - قبل ان تحين الساعة - على المتبرجات وقد بدا العرق يسعى إلى رقبته، والناس تسعى إلى محطاتها والاتوبيس يفرغ ويزدحم، يثقل ويخف، وكل عدة محطات يصعد بائع نفتلاين، ويهبط بائع لبان، والرجل يمد الممدود ويرفع المرفوع، وينصب المنصوب، ويسحب من تلال الكلم وقد أثر ان يحول باب النزول إلى منبر وراح يعدد المناقب، ويجدد العواقب، دون ان يتوقف لحظة. وقد ثبت ناظريه على طيور وهمية وضعها على رؤوس الناس، وبدا العرق يبلل حواف شاله الأبيض الذى عقده على طريقة الخليجيين، وياقة جلبابه المصنوع فى الصين، وطاقيته المصنوعة فى الهند وفانلته الداخلية التى ضنعت بمغازل

فرنسية وامريكية والمانية والناس ما بين مشغول ومتشاغل، يقظ ومتثائب، كان على كل نازلٍ أن يبذل جهدا مضاعفا فـفـعل، ولم يخل الأمر من بعض السباب واللكزات، ولكن ما كاد الخطيب ينتهى وينزل فى محطته حتى لاح لنا - من خلف الزجاج - وهو يفتش جيوبه فى هول عظيم، وحين تحرك الأتوبيس، فقد تماسكه وتوقف عن الحوقلة ثم صاح فى الجميع : المحفظة يا أخى السارق.. محفظتى!! وحين فقد الأمل فى اللحاق بالأتويس، رأيناه يهرول ويشيح، ويسب ويصيح : المحفضة يا كفرة.. يا زناديق.. يا أولاد الخنازير... وظل يصغر ويبتعد، والناس تتبادل النظرات... وتخفى ضحكاتها!!

الكائن.. والمكنون

حينما اختارني الضرير لأقوده إلى العنوان المطلوب، لم تسعفني الحيل، أو تواتيني الوسيلة.

فقد اختارني - انا العازف العزوف - من بين ملايين البشر لأقوده الى مبنى (....) في شارع (....).

ولما كان عنواني - كما قال - في طريقه، فقد استسلمت لكفه اللزج المشعر، وفي نيتي أن أهرب حالما تأتي الوسيلة.

ويبدو أنه كان يشعر بذلك، لأنه قبض على معصمي، وكأنني هارب من الإعدام، ولم يضف كلمة مظللة يمكن تأويلها، أو الانطلاق منها، أو الاختباء تحت ظلها!! أمر باتر.. حاد كالسيف لكنه مهذب.. وناعم.

وقبل أن تغرب الشمس سألني عن اسمي وعنواني، فأجبته، وحين عرف أنني قطعت كل هذه المسافات لأزور صديقي الضرير تعجب، وتساءل عن الضرورة التي تدعو

مبصر لزيارة بصير؟! وقبل أن أعلق أو اعترض ضغط على كفي فسكت، ثم توقف أمام محل لبيع المشروبات، وأمرني بالانتظار حالما يأتي بكوبين.

وما كدت ألتفت يمينا، وأفكر في الهرب يساراً، حتى رأيته يقبض على كفي، ويرفع في وجهي مشروبا تتواتر على حافته فقاقيع نزقة قال : إشرب! وما كدت أفعل ذلك حتى شعرت بالفقاقيع تتحجر في حلقي وتكاد تخنقني. وقبل أن أفكر في سكب ما تبقى سمعته يصيح من هناك : اكمل كوبك!! فشككت أمر عماه، ولكن الجرأة لم تواتني كي أنظر في عينيه، اللتين ربما كانتا مبقورتين، أو مقرحتين، أو تشبهان «أم الخلول» في لزوجتها واختلاطهما.

لكني استطعت في غفلة منه - أن أسكب بعضا مما تبقى، قبل أن أختنق، وكانت دهشتي كبيرة حين ظغط على كفي وهمس في أذني محذراً :

- لا تفعلها مع غيري!!

وحين فهمت أنه فهم شعرت بمأزقي، وأنني تحولت إلى

صندوق من زجاج لا يخفى شيئا، وحين تأكدت من ذلك أردت أن أتجه صوب اليمين فوجهنى صوب اليسار!

وقبل أن اعترض أو أقول ، ضغط على كفى وقال «لا تخف» فكل الطرق تقود الى ما تبغى!! ثم سألنى إن كنت أهتم بالسياسة أو التاريخ أو الاقتصاد.. أو النساء..أو الخمور.. أو العلوم أو..

فأشرت إلي أننى لا أهتم إلا بجلدى. فاستحسن صمتى، وإشتكى من الحر والرطوبة فلم أهتم!!

كان العنوان قد غرق فى لزوجة كفى، فعرفت أننى ضللت الطريق وأن مأزقى بات وبيلا، وما كدت أشكو ذلك حتى طمأننى، وقال ـ أنت معى! ولما أشرت إلي حلول الظلام، وخوفى من أن نصبح ضريرين لكزنى بعشم لا أحبه وقال لا تخف ألست معى؟!

ثم طلب أن أقرأ العنوان فقلت اننى لا أقرأ قال «خسارة» ولم أعرف عما أنصبت «الخسارة» بالضبط.

وحين قدمت الورقة المعجونة بلزوجة كفى.. فردها وهى مقلوبة وقال : نعم.. نفس العنوان.. ألم أقل لك؟ ثم قال

كلاما كثيرا فهمت منه أن الحبر لابد قد ساح، وان على أن أعتمد على ذاكرتى مثلما يعتمد الصقر على بصره!

ولما وصلنا الى ميدان - تتقاطع شوارعه وتتفرع - أشار نحو لافتة وسألنى عن اسم الميدان فلم أعرف، نصحنى أن أسأل فلم يفيدنا أحد، جريت خلف ضابط فجرى أمامى، سألت إمرأة عجوز فبكت وقالت اننى أبحث مثلك ؟ رشوت شخصا يبدو متعلما فانتحى بى جانبا ونصحنى أن أهتم بنفسى. صعدت على كشك الكهرباء ونزعت اللافته وعدت إلى رفيقى وهى تحت إبطى وما كدت أشرح ما جرى حتى وضع يده على فمى وهز رأسه أسفا.. وحين عرف اننى تجاوزت الثلاثين ومازلت أعزب، تعجب محوقلا وقال : لقد عشت أكثر مما ينبغى!!

فتوقفت لحظة لأتأمل قوله، لكنه جذبنى من رسغى فتبعثرت أفكارى! وحين تجاوزنا أسوار المدينة، وحل الظلام أصبحان ضريرين!..

وبات على أن أشم رائحة إبطه وحدى. وأتحسس طريقى بمعرفته - فى ظلام لم أشهده فى حياتى.

وحين أبديت رغبتى فى التقيؤ جانبا ضغط على كفى، ونصحنى بالاحتفاظ بكل ما أملك.. قبل أن يأتى اليوم الذى لا يجد فيه المرء ما يقدمه لنملة!!

ولما هبت الريح وحملت إلينا أصوت ذئاب وضباع، أكد أننا نمشى فى الطريق الصحيح!. وأن عنوانه هو عنوانى! ثم سألنى عن رأيى فى الأهلى والزمالك، فقلت إننى أشجع جزر القمر، قال : ولكن جزر القمر لا تعرف الكره..! فقلت ولهذا أشجعها.

ضحك فلم أجد ما يضحكنى، لكنى وجدتها فرصة لأحسم أمرى وسألته بحسم قاطع «متى يفك قيدى؟» فتغير صوته وقال اننى لا أقيدك!! ثم سحب يده - فجأة - من يدى، وقال : تفضل.. أنت حر!!

شكرته مبتهجا، وعدت راجعا إلى حيث أتيت

كان كل ضوء للمدينة قد تلاشى، لكنى - بدافع التحرر - لم أنظر خلفى، وتقدمت فى الظلام دون أن تكون لدى أى فكرة واضحة عن شئ واضح لكن الشجاعة، ما لبث أن خانتنى، حين رأيت عيونا تبرق فى الظلام، وشعرت

بقدمىَّ تغوصان فى لدونة نابضة، وسمعت ذئابا تعوى ونساء تبكى وتلطم الخدود، فجريت نحو رفيقى هائما مستنجدا وزاد جزعى حين لم يصلنى صوته النورانى فناديته برجاء الغريق ويأس المنكسر، حتى أتانى صوته البعيد سامحا متسامحا، فأخذت طريقى إلى صوته - وقيده - وأنا أتعثر فى رعبى وفرحى. وحين وصلت إليه حاولت ان أقبل يديه شاكراً ذاكراً.. لكنه سحبها على الفور وقال بانكسار : أتحتمى بضرير يا كافر؟!

ثم حمد الله على نعمة البصيرة، وسحبنى فى الظلام مواصلا رحلته وأنا أخب فى أثره مثل كلب مطيع!

كنت مأخوذاً بما أدركنى، وأشعر بما يئن وينسحق ويتجزأ تحت حذائى المثقوب.. وحين تلبدت السماء، وانهمرت الأمطار، سمعته ينصحنى بقصب عينى بما تيسر، فتهيبت الأمر، واستثقلت الظلام والعواصف، لكن الخوف من العمى أعمانى عن التجلد والانتظار، فشققت قميصى، وتلفحت بنصفه، وتركت الثانى يخفق على كتفى نبراساً للهزيمة والرجاء ورحت أخوض فى بحار ضحلة،

وأوحال لزجة ستر الظلام لونها . فى البداية تصورت اننى احلم، وان ما أشعر به الآن : مجرد كابوس يمكن ان ينتهى، لكنى تذكرت ندرة أحلامى، وخواء حياتى، وخلوها من كل بهجة أو مغامرة! فتتبعت رفيقى وظللت أخوض فى الأوحال حتى هدنى التعب.. وبين اللحظة واللحظة كان يمنعنى من السقوط، أو ينصحنى بالابتعاد عن حفرة أو تمساح!!

وحين سألنى عن البصر سألته عن البصيرة، فراودتنا البروق عن نفسها ووصلت الأوحال إلى القلب النابض. قال : المرء مع من يجهله ضرير! فتدبرت أمرى، وتشاغلت باثقالى، وتعلقت بذراعه تعلق الضرير بالضرير. وكلما توقفت لحظة سحبنى، وكلما توقف سحبته.

وبعد الفجر تجاوزنا الوهاد إلى الجبال، والأوحال إلى الحصى، فسقطنا على الأرض وقد انهكتنا السيول والعواصف. ومر وقت طويل قبل ان تنتظم انفاسنا وتتوقف الأمطار والعواصف.

وحين رفعت العصابة عن عينى خلتنى أسير نحو حافة

جبل يضيق ويرتفع وعلى جانبيه تتواثب كائنات سوداء تنفث نارا من مؤخراتها.. وترمقني بعيون شامته كارهة، وكلما تقدمنا نحو الهاوية، قل عددها وتباعد ورأيت بعضها يطير مثل خفاش، ويخلخل الهواء، وأخرى تأكل ذراع طفل وتلحس ما يسقط على الأرض. وعلى التلال البعيدة، كنت أسمع الموتى وهم يهزون قبورهم يأساً ويصيحون : افتحوا.. افتحوا.. افتحوا.. النور.. النور!!

وكلما هززت رفيقي، ونقلت ما أرى، يضحك مهونا ومكذبا فيزداد شكي في أمره، واستحضر حكاية الرجل الذي أماط اللثام عن سره فركبه عفريت، والذي رافق حكيما الى المقابر قبل ان يرى ساقه البقرية، والذي ركب جنياً فظل يرفعه ويرفعه حتى تحطمت عظامه وضاع ذكره!

وكلما عاودت النظر إلى ساق رفيقي وجدتها مثل ساقي، ولو كان لي أن أشك.. فلم يكن أمامي سوى الشك في ساقي أنا لا ساقه!

إذ كان الطين مازال عالقا بثيابنا، ومالئا جيوبنا،

وحين فككنا تشابك اليدين وجدت يدى قد تغضنت من المطر والطين، وشعرت بما يتحرك داخلى حذائى المثقوب فتخلصت منه على الفور فوجدت عقربا يسعى.. وقد ترك بعضا من سمه فى دمى!

وكان الضوء قد تجلى، حين حاول الضرير أن يتخلص من لزوجة كفى.. وحين نجح فى ذلك، دفعنى إلى الخلف متقززاً، وقال : ابتعد.. أنت مبصر!! ثم فرك يديه اللتين تغضنتا من البرد والرغام، وقال كلاما لم أفهمه وحين شعر بغضبى تباسط قليلا وضمنى تحت إبطه. وقال وهو يشير الى جهة : ها أنت فى نهاية البداية.. فسر.. وانس كل ما عرفته ولاكه الآخرون فالمرء مع ما يعرفه سجين!

وقبل أن يولينى ظهره أردف وهو يرفع وجهه إلى أعلى قليلا : خضها كما خاضها جدك الأول، واستفت قلبك ولو أفتاك عقلك!!

فأنت فى حضرة النور.. فى بداية البداية.

ثم رأيته يجد فى البحث عن شئ ما فى جيوبه، وقد تولاه القلق، حاولت أن أعرف ما ضاع منه. فقال إنها

زجاجة خمر صغيرة، اشتراها قبل أن يراني. وحين فقد الأمل في العثور عليها، سمعته يسبني ويطالبني بالغروب عن وجهه. وحين تلكأت وتعللت، ووقفت متردداً أتاني صوته الآمر غاضبا وموشكا على البكاء. فتمردت برهة، وتقدمت خطوتين احترت بعدهما أي الطريقين أسلك؟

وحين تجلى الضوء من مشرقه القريب، وجدتني في القلب منه، وكأنني في بداية الخليقة، وبدا لي انني أول مخلوق في عالم لم يتخلق بعد.. فخفت على بصره، ولم أر ما حولي إلا حين عصبت عيني بما تبقى من قميصي!

كانت الحصى تتواثب تحت قدمي الحافيتين، حين شعرت بروحي تتحرر من عقالها، ومن مطالب الجسد ومطامحه. فتتبعت ظللي، حتى سمعت رفيقي يصيح من بعيد : النور.. النور!! ثم رأيته يهيم كالفراشة الحمقاء نحو الضوء القاتل هاتفا :

- إني أرى.. أني أرى!!

ولما رأيته يسعى نحو هاوية الجبل، تذكرت الهلاك والعدم فسعيت في إثره صائحا، محذراً : ارجع يا

ضريـ.. أرجع يا كائن.. ارجع! فتجاهلني وكأنه أصيب بالصمم أو الجنون.. وواصل هيامه المأخوذ وكأنه فراشة تسعى إلى حتفها ولأني لم أعرف اسمه، فقد ناديته بما تيسر :

- أيها الشخص.. أيها الكائن.. أيها الإنسان.

وحين جف حلقي لم يسمعني، وواصل سعيه الممسوس نحو حافة الجبل التي بدت وكأنها نهاية الكون والوعي، وبداية الضوء والظلام.

كنت مأخوذا بما أحس وأشعر، فلم أره وهو يسقط فيما يشبه الجب، لكنني سمعت صوته المستنجد الآفل، وهو يبتعد ويبتعد فتمنيت أن أصحو إن كنت في حلم.

وحين حاولت إنقاذه هالني العمق والجنون، وراعني الظلام والردى فسقطت على ظهري متراجعا مرتعباً، وظللت أتقلب وانحدر مثل برميل فارغ، حتى منعتني صبارة عجوز لكن صوته الكابوسي ظل يتماهى من بعيد وينقسم في مسامعي! وشيئا فشيئاً.. أصبح صوته امتداداً لأصوات الكون الكثيرة، والتي لا نميزها بسبب

دوامها واندغامها. وخال لى أن جسمه قد أخذ مدارا سرمديا فى نظام كونى لا نرى منه سوى الشهب والنيازك.

ولما كانت العودة ـ إلى حيث أتيت ـ لا تعنى سوى الانتحار، فقد دبرت أمرى، وتأملت حالى. ولما عرفت انه لم يبق لى سوى المغامرة شكرت من منحنى نعمة البصر، وسلبنى نعمة البصيرة، ثم تأملت النفق الذى لابد من عبوره، ذلك الذى يفصل بين ما أجهله وما أخافه، بين ما تجاوزته، وما أهفوا اليه!

كان النفق ضيقا ومظلما ومكتظا بالزنابير، وكان على أن أتحرر من ثيابى وأزحف على بطنى كيلا يصطدم رأسى بسقفه الشوكى الناتئ، فاغمضت عينى.. وملأت صدرى بالهواء المشبع بالرماد، وقبل أن أدخل النفق بعدة خطوات..بدأت أزحف.

الضوء والنار

بعد أن أستفاق «الحاج» من إغفاءته الطويلة، وسكونه الكظيم تطلع إلينا بعينين زائغتين، مترعتين بالانكسار والألم.. فلم نعد بحاجة لأن يقول.

كنا نتحلق حول سريره البارد، ولا نترك له من فراغ الدنيا الشاسعة سوى حلقة ضيقة تحدها رؤوسنا الملتفة، وعيوننا الفاحصة! لكنها كانت كافية لأن يمعن النظر إلى السماءالواسعة المفتوحة بقبتها الزرقاء، وغيومها الحيرى، وسؤالها القديم.

ولابد أنه كان يبحث عن إجابات لا نعرفها، حين ترك بلده وسافر مع المسافرين..

فلم يقل : «كفاية يا عمل» حين أهلكوه فى الخلع والزرع ولم يقل : «كفاية يا صبر» مد خطوط الحديد لتعبر القطارات إلى الصحارى والهضاب! ولم يقل «كفاية يا عين» حين نام فى خيام الشعر وزرائب الحمير والبقر. ولم

يقل «كفاية يا ألم» حين هاجمته القروح وهدمه السقم.

لكنه نجا من الحصبة والدرن، وهرب من الطاعون والكوليرا، وقاوم السعال والسعار، وفر من البهاق والجذام.

قالوا : احفر فحفر، ازرع فزرع، اصنع فصنع، اطلع فطلع.. وحين حاسبوه، لم تراجع يسراه ما قبضته يمناه! كان يعرف ما لا يعرف غيره.. ويعرف أنه امتداد لامتداد، وأن ما قد يراه المرء بداية قد يكون عين النهاية.

إذا علمته التجربة كيف يحذر السموم والغيوم، ويتجنب المركبات والراكبين، والطائرات والطائرين، وكيف يتحاشى اعداءه الطبيعيين والتاريخيين ويحذر كيد النساء ومقت الرجال!

فتجاوز الستين دون أن يخذله قلب، أو تخدعه الشرايين.

كان عليه أن يحارب فى كل اتجاه، وينتصر فى كل المعارك، فهزيمة واحدة يمكن ان تنفيه، وتنهى حياته، إغماضة عين قد يكون فيها الهلاك، رفة هدبٍ، لمسة

إصبع، كلمة حق.

لعبة هزلية يلعبها البشر كل يوم، كما تلعب الفراشة حول النار - مزخوذة بضوئها - فتتخطى ذلك الخيط الرهيف الذى يفصل بين الضوء والنار. بين البداية.. وبداية النهاية!

تلك الشعرة الممدوة التى لا يراها إلا الممعنون. فلم يصل الفجر - حاضرا - حتى لا يهاجمه اللصوص، أو يدهسه سائق مخمور، أو يعقره كلب مسعور، أو أسد هرب من سيرك أو حديقة كان يعرف أن الكهرباء تصعق، والنار تحرق، والعلم يمحق، والسهر يمرض، والبوظة تسكر، والضوء يرهق..

وما بين البرزخين حجاب لا يكشفه الله لكل البشر!

لم يتكلم فى السياسة أو القانون، ولم يقاوم السوارى أو يناصر سعد زغلول، فلم تصبه رصاصات المحور، أو قنابل الحلفاء، ولم يشارك فى الحرق أو الإطفاء.

كان عليه أن يقول فقال. وان يوافق فوافق. وأن يفعل ففعل. فأنجب البنين والبنات، وبنى مثلما يبنى غيره ثم

خضب وعرش وأدخل الماء والكهرباء، وهاهو يرمينا بنظراته الحيرى، ويجمع خيالاتنا الملتفة بعين الغريب المغادر.

لم تكن حياته رغيدة ، أو سعيدة حتى يمسكها بأسنانه، لكنها الشعرة الرهيفة التى نشعر بها ولا نرأها أبداً.

فمع كل دقة ساعة، كانت الروح تحاول أن تفر منه، فيكبحها بحيل البشر القليلة : مرة بأسنانه، ومرة بأمعائه، ومرات بعينيه، فنراه يكز، ويحز ويفز، ويجز، ونراه يقبض ويتلوى، يعرق ويبرد، يصحو ويغفو، فنتبادل النظرات ولا نملك حيلة ومع انتصاف الليل كانت الروح تحاول أن تروح، وتهرب لكنه كان يسحبها بمخلب الإرادة، وكأنها مربوطة بلولب لا نراه، وفى كل مرة يفتح عينيه كان ينظر نحونا متسائلا فرحا. وكأنه يريد أن يطمئن على نجاحه الجديد، وفرحه بالوجود والحياة، قبل أن يروح فى سكرة جديدة!

وحين أمعن فينا النظر، وحاول أن يبتسم ابتسامة بدت

لنا الأخيرة تبادلنا الهمسات والنظرات لكنه بعثر خيالنا باستفاقة جديدة، نظرها إلينا فرداً فردا، ثم نظر نحو السماء مستسلما وقد تألقت فيها النجوم، ثم سمعناه يغمغم بإنكسار وثبات : «كفاية يارب.. شبعت». وبعدها بثوان معدودوات.. أغلق عينيه... ومات!!

فهرس

للمؤلف

* سبع وريقات شخصية لعامل التحويلة المنتحر «قصص» - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣

* تطهر الفارس القديم «قصص» - الهيئة العامة للكتاب - سلسلة أدب الحرب - ١٩٩٦

* البعد الغائب (نظرات فى القصة والرواية) مركز الحضارة العربية - ١٩٩٩

صدر مؤخرا عن (أصوات أدبية)

٢٠٢ - بالأصابع التى كالمشط .... شعر : محمد سليمان
٢٠٣ - كويلا ....قصص : يحيى مختار
٢٠٤ - الشرنقة .... قصص : سليمان فياض
٢٠٥ - مدينة اللذة .... رواية : عزت القمحاوى
٢٠٦ - كتاب الأرض والدم .. شعر : محمد عفيفى مطر
٢٠٧ - طراوة العين ....قصص : نبيل نعوم
٢٠٨ - نخب اكتمال القمر ....قصص : ابتهال سالم
٢٠٩ - طلل النار .... قصص : يوسف أبو رية
٢١٠ - الواحد الواحدة .... شعر : حلمى سالم
٢١١ - فوق الحياة قليلا .... رواية : سيد الوكيل
٢١٢- برجالاتك .... قصص : أمين ريان
٢١٣- وقائع استشهاد اسماعيل النوحي: رواية: سمير ندا
٢١٤ - فخاريات .... شعر : اسامة شهاب
٢١٥ - رجف الذاكرة .... قصص : رضا امام
٢١٦ - تفاصيل وتفاصيل أخرى.........شعر : ابراهيم داود
٢١٧ - هى وخادمتها .... قصص : هناء عطية

٢١٨ - كتاب العشق .... شعر : عبد الدايم الشاذلى

٢١٩ - حكايات جار النبى الحلو.. قصص : جار النبى الحلو

٢٢٠ - الحنين .... شعر : عبد العظيم ناجى

٢٢١- نسيم الصبا..................... قصص : زينب صادق

٢٢٢- بندق .... قصص : محمود حنفى

٢٢٣- الغالب والمغلوب.............. رواية : مصطفى الأسمر

٢٢٤- مساحات للتعب .... شعر : سمير عبد الباقى

٢٢٥- مشتهيات .... رواية : سهام بدوى

٢٢٦- أشعار .... شعر : ابراهيم رضوان

٢٢٧- القابض على الجمر .... قصص: رفقى بدوى

٢٢٨- حلاوة الروح .... شعر : أمين حداد

٢٢٩- يونى سكس .... قصص : علاء البربرى

٢٣٠- الأرض جحيم الخائفين .... شعر : حسن عقل

٢٣١- حلوانى عزيز الحلو .... رواية : محسن يونس

٢٣٢- فراديس الحوارى .... شعر: ابراهيم خطاب

٢٣٣- مقاطع من جولة ميم الملة ...... قصص: حافظ رجب

٢٣٤- هذا دمى وهذا قرنفلى .... شعر : وليد منير

٢٣٥- توتة مائلة على نهر .... قصص: محمد ابراهيم طه

٢٣٦- معلَّقةٌ بشص .... شعر : فريد أبو سعدة

٢٥٦- زهرة البستان .... قصص : فؤاد قنديل
٢٥٧- الجرذان .... قصص : فاروق حسان
٢٥٨- أسفار الملك الضليل .... شعر : حسن النجار
٢٥٩- هذا ظل الأرض على قلبي..... شعر: فتحي فرغلي
٢٦٠- ذلك الجانب الآخر .... شعر : حسن سليمان
٢٦١- الحياة مش بروفة .... شعر : مجدى الجابرى
٢٦٢- شخص غير مقصود.... قصص : منتصر القفاش
٢٦٣- عمل نبيل .... قصص :.إدوار الخراط
٢٦٤- طارت مناديل السعاده..... شعر : طاهر البرنبالى
٢٦٥- حارس الغيوم..........قصص : سمير عبد الفتاح

رقم الإيداع : ٩٩/٣٤٧٤

الأمل للطباعة والنشر